الحِجاج في شعر الحرب في العهد النَّبويّ

(دراسةٌ تطبيقيَّة)

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الخامس

(مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)

المنعقد في ١٨ مارس ٢٠٢٣م

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

جامعة الأزهر

إعداد الدكتور

محمد شمس كامل عُقاب

أستاذ الأدب العربي المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، مصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة زايد

الحِجاج في شعر الحرب في العهد النَّبويّ (دراسةٌ تطبيقيَّة)

محمد شمس كامل عُقاب
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية، مصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة زايد، الامارات .
البريد الالكتروني: mohamed.shams@alexu.edu.eg

الملخص:

يُثير الشعر في صدر الإسلام في الدراسات الأدبية منذ القدم أحكامًا ومقولاتٍ مختلفة، تغمز في قوّته ومتانته ووفرته، ولعل من أسباب ذلك دخول كثيرٍ من الشعر المصطنع فيه، وسببٌ آخر وجيه هو قِلَّةُ الدراسات الجادّة المتريّثة عند دراسة الشعر في هذا العصر، ولعل الدراسة الأدبية بالمناهج العلميَّة المناسبة تؤدّي إلى نتائج جديدة تجلو كثيرًا من حقائق التأريخ الأدبي لذلك العصر. من ذلك غلبة النزعة العقلية في شطرٍ من أشعار العصر، ولا سيما في شعر الحرب منه، حيث يؤول الأمر إلى النصر أو الهزيمة، ويقول الشعراء في ذلك أشعارهم يدافعون أو يهاجمون، فتظهر الحجج العقلية: المنطقية والمُغالَطية، تبعًا لذلك، وينحو بعض الشعراء إلى التأثير الإقناعي بوسائل مختلفة أخرى: لغوية ونفسية.

يريد هذا البحث أن يقف على أهم صور الحجاج في شعر الحرب في تلك الحِقبة التي تمتدُّ لنحو عشر سنوات، بين المسلمين وغير المسلمين، والبحث إذن لن يقتصر على أشعار المسلمين وحدهم.

من تلك الحجج المهمة النابعة من نظرية الحجاج خصوصًا: حجة السلطة، وحجة الاشتراك، والحُجج القائمة على بنية الواقع وفقًا للروابط. ومن غير حقل نظرية الحجاج نجد في علم النفس مثلًا وسائل إقناعية مختلفة كالعقلنة أو التبرير، وغير ذلك. لقد نزعت طائفةٌ من الشعراء إلى استعمال الوسائل الإقناعية والحجاجية، يسعى البحث إلى تجلية تلك الخصيصة في شعرهم.

الكلمات المفتاحية: الحجاج ، شعر الحرب ، العهد النبوي ، الإقناع في الشعر

Argument in the poetry of War in Al-Labon era (applied study)

Mohammed Shams Kamel Aqab
Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Alexandria University, Egypt
Faculty of Humanities and Social Sciences, Zayed University, UAE
Email: mohamed.shams@alexu.edu.eg

Abstract :
Poetry at the beginning of Islam in literary studies from ancient times raises different judgments and quotes, represented in its strength, durability, and plenitude. Perhaps one reason for this is the entry into it of much artificial poetry and another reason for serious studies inherited when studying poetry in this era. One example is the predominance of mentalist in a fraction of today's poetry, especially in the poetry of war, which leads to victory or defeat. The poets say, their poetry defends or attacks, showing logical and fallacious mental arguments, accordingly, and some poets tend to have persuasive influence by various other means: linguistic and psychological. This research aims to look at the most important images of pilgrims in the poetry of the war in that era, which: for about ten years between Muslims and non-Muslims, so research will not be limited to the poetry of Muslims. Among those important arguments stemming from the theory of pilgrims, especially the argument of authority, the argument of participation, and the arguments based on the structure of reality according to the connections, and without the field of the theory of pilgrims, we find in psychology, for example, various persuasive means such as rationality or justification, etc. A range of poets has tended to use persuasive and argumentative means. The research seeks to reflect that stench in their poetry.

Keywords: Argument, War Poetry, Prophetic Era, Persuasion In Poetry.

الحجاجُ مبحثٌ جوهري من مباحث ما يطلق عليه: البلاغة الجديدة، وهو مبحث جديد قديم، قديمٌ من حيث الوجود إذ لا تستغني النفس البشرية عن المحاججة في شؤون الحياة، حتى التافه منها، ولكنَّ الإنسان قد يحاجج بالفطرة، أو يحاجج وهو لا يدري أو لا يلتفت لذلك. وأما في الشعر فالحِجاج –تبعًا للنفس البشرية– لا يخلو منه زمن، وإذا توسّعنا بمفهومه كما يفعل بعض الباحثين الذين يتلمّسون في العناصر الفنّية للشعر نوع محاججة؛ فإنه لا يخلو منه شعر شاعرٍ أو ديوانُه. وإنّ بذل المجهود في استخراج الصور الحجاجية جميعها من ديوان كامل لشاعرٍ أو تيَّارٍ شعريٍّ كامل لربما كان من قبيل التزيُّد والاستطالة في البحث، وإنما ينفع رصدُ الظواهر الحجاجيّة إذا مثّلت تيّارًا حاسمًا في الشعر، أو إذا صار الحجاج متغلّبًا على الصورة، حينئذٍ يحسن الوقوف على هذه الظاهرة وتحليلها وبيان قيمتها في الشعر.

ربما زعم زاعمٌ حداثة الحجاج فظُنّ عدم استخدامه في شعرنا القديم، وهذا زعمٌ أضعفُ من أن يُستفرغ الجهد للرد عليه؛ إذ هو من قبيل الآراء المتعجّلة التي لا نفتأ نجدها في كتب التحليل الأدبي، وفي كثيرٍ من النصوص المؤرِّخة للأدب.

لقد وقع هذا النوع من الظاهرات في جزءٍ قديم من شعرنا العربي في المدة الأولى من صدر الإسلام، وكان من حق هذا الشعر الذي وصم كثيرًا بالضعف أو النزول درجةً عما سبقه أو تلاه من شعر؛ أنْ نقف على واحدةٍ من الظواهر التي فيها جانبٌ من جوانب ثراء الشعر، وهو جانب الحجة فيه، وقد اخترنا للبحث نصوصًا من شعر الحرب قائمةً في عمودها على عُنصر المحاججة، وهو عنصرٌ مدهش لما يختلط في طيّات نصوصه من الحجج البرهانية والحجج المغالَطِيَّة الزائفة، التي تدل على قدرة عقل الشاعر العربي على إنشاء الحجج وسوقها واستحضارها حين تعوزه الحاجة لذلك.

سنحاول في هذا البحث استقراء الحُجج من مجموعة من النصوص الشعرية المختلفة في العهد النبويّ الميمون، للمسلمين ولمن لم يُسلموا بعدُ في ذلك الوقت؛ سالكين طريقة أصحاب نظرية الحجاج، بل قد نتوسّع فنشمل بذلك حججًا أخرى من بابة علم النفس أو عناصر التأثير البلاغي أو الخطابيّ، مما صار الباحثون في الحجاج يُدخلونه في تطبيقات تلك النظريّة.

* * *

النصُّ الأول: الحارث بن هشام:

من أشهر النصوص التي قيلت اعتذارًا، وهو للحارث بن هشام المخزومي شاعر قريش الذي هرب يوم بدر. وقد وصف وجد حسانُ بن ثابت في مشهد هَرَبه تاركًا وراءه قومه وأخاه أبا جهل، مادّةً ينهل منها في تركيب صوره؛ فيذكر حسَّانُ اسمه مرخَّمًا على سبيل التهكُّم والهجاء، تهكُّمًا بالصنيع والرجل، ثم يمُطُّ هجاءه ويفصِّلُ الصورةَ الشعريَّة، وكأنه يعرض لحظة مهربه بالحركة البطيئة؛ ليبالغ في إذلال نفس الحارث، وليُبْقي أثرها في الشعر أكبر قدرٍ ممكن، وأطول وقتٍ مستطاع، فيقول:

يَـا حَـارِ قَـدْ عَوَّلْـتَ غَيْـرَ مُعَـوَّلٍ ... عِنْـدَ الْهِيَـاجِ وسَـاعَةَ الأَحْسَـابِ
إِذْ تَمْتَطِـي سُـرُحَ الْيَـدَيْنِ نَجِيبَـةً ... مَرْطَـى الجِـرَاءِ طَوِيلَـةَ الْأَقْـرَابِ
وَالْقَـوْمُ خَلْفَـكَ قَـدْ تَرَكْـتَ قِتَـالَهُمْ ... تَرْجُـو النَّجَـاءَ وَلَـيْسَ حَـيْنَ ذَهَـابِ
أَلَّا عَطَفْتَ عَلَى ابْنِ أُمِّكَ إِذْ ثَوَى ... قَعْـصَ الْأَسِـنَّةِ ضَـائِعَ الْأَسْـلَابِ
عَجِـلَ الْمَلِيـكُ لَـهُ فَأَهْلَـكَ جَمْعَـهُ ... بِشَـنَارِ مُخْزِيَـةٍ وَسُـوءِ عَـذَابِ[1]

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميري ٢/١٩-٢٠ (تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٥م).قال ابن هشام بعدها: "تركنا منها بيتًا واحدًا لأنه أقذع فيه".

وحسان يصنع ذلك بالحارث بن هشام على الخصوص لأنه شاعرٌ، وهو لسانُ قومه قريش، والشاعر يحب أن يخاطب الشاعر، ويتلذَّذ بهزيمته في مثل هذا المقام الحربيّ، الذي انتصر في السِّنان، فبقي أن ينتصر فيه اللسان. ولأنه أخو أبي جهل، وأبو جهلٍ هو عدوُّ الله، وداعية قريشٍ إلى الثبات على الكفر، فكان شنُّ الغارة على أخيه مطلبًا يُريغه فحل شعراء المسلمين حسانُ في تلك الساعة.

ويذكره متلعِّبًا به في قصيدة أخرى من أشعر ما قاله حسان، وفيها يقول:

إنّ كُنْـتِ كَاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدّثْتِنِي ... فَنَجَـوْتِ مَنْجَـى الحَـارِثِ بْـنِ هِشَـامِ
تَـرَكَ الْأَحِبَّـةَ أَنْ يُقَاتِـلَ دُونَهُـمْ ... وَنَجَـا بِـرَأْسِ طِمِـرَّةٍ وَلِجَـامِ
تَـذَرُ العَنَـاجِيجُ الجِيَـادُ بِقَفْـرَةٍ ... مَـرَّ الـدَّمُوكِ بِمُحْصَـدٍ وَرِجَـامِ
مَـلَأَتْ بِـهِ الْفَـرْجَيْنِ فَارْمَـدَّتْ بِـهِ ... وَثَـوَى أَحِبَّتُـهُ بِشَـرِّ مَقَـامِ
وَبَنُـو أَبِيـهِ وَرَهْطُـهُ فِـي مَعْـرَكٍ ... نَصَـرَ الْإِلَـهُ بِـهِ ذَوِي الإِسْـلَامِ
طَحَنَـتْهُمُ وَاَللهِ يُنْفِـذُ أَمْـرَهُ ... حَـرْبٌ يُشَـبُّ سَـعِيرُهَا بِضِـرَامِ
لَـوْلَا الْإِلَـهُ وَجَرْيُهَـا لَتَرَكْنَـهُ ... جَـزَرَ السِّـبَاعِ وَدُسْـنَهُ بحَـوَامِي[1]

لقد صار لزامًا على الحارث أن يردَّ عن نفسه التهمة، ويدفع عن شخصه العار، فقد أوجعته أبيات حسان وما يُهَمْهم به الناس من حوله، فقال أبياتًا متداولة لعلها جزء من قصيدة كاملة، اكتفى أصحاب الكتب بموضع الشاهد منها وهو هذه الأبيات التي يقول فيها:

(١) السيرة النبوية ٢/١٧-١٨، ثم قال ابن هشام في عقيب ردّ الحارث عليه: "تركنا من قصيدة حسان ثلاثةَ أبيات من آخرها؛ لأنه أقذع فيها" (السيرة ٢/٢٠).

اللهُ أَعْلَـمُ مَـا تَرَكْـتُ قِتَـالَهُمْ حَتَّـى حَبَـوْا مُهْـرِي بِأَشْـقَرَ مُزْبِـدِ[1]
وَعَرَفْـتُ أَنِّـي إنْ أُقَاتِـلْ وَاحِـدًا أُقْتَـلْ، وَلَا يَنْكِـي عَـدُوِّيَ مَشْـهَدِي
فَصَـدَدْتُ عَـنْهُمْ وَالْأَحِبّـةُ فِـيهِمُ طَمَعًـا لَهُـمْ بِعِقَـابِ يَـوْمٍ مُفْسِـدِ[2]

هذا ردُّ أشبه بالتملُّص منه بذكر الأسباب المقبولة عندهم، وردٌّ بالأمانيّ التي لا وجود لها في أرض الحقيقة، ولكنَّ الحارث ساق ردَّه بطريقته الفنيَّة، وهي طريقةٌ تعتمد على التجهيز والترتيب المعَدِّ من قبل، وبيان ذلك أنه ردٌّ استدعى عاطفة الشَّفقة ممن يعتبُ عليه ويلومه؛ وهي عاطفةٌ قد تدفع اللائم إلى أن يغفر للمذنب في بعض الأحيان. البداية بقوله: "الله أعلم"، بدايةٌ حِجاجيَّةٌ خالصة، فالجميعُ مؤمنٌ بأنَّ الله العليَّ أعلمُ بمكنون الصُّدور، فكأنَّ الشاعر يقولُ: لا أُعاملكم أنتم، بل أعامل الله، وأنا لم أكذب فيما أقول، والله يعلم ذلك. والإحالةُ على مقام الألوهيَّة إحالةٌ عاطفية يدرك الشاعر أثرها في النفوس. وهذا النوع من الحِجاج داخلٌ ضمن حُجج الاشتراك كما عند بروطون[3]، أو (الشَّهادة) كما عند

---

(١) قال السُّهيلي: "وقول الحارث بن هشام: حتى عَلَوْا مُهْرِي بأشقر مُزْبِدٍ، يعني: الدم، ومزبد: قد علاه الزَّبد" (الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، للسهيلي، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ٣٦٨/٥، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٤١٢/١هـ). وبعد هذا البيت بيتٌ زائدٌ في الصناعتين:

وشممتُ ريح الموت من تِلقائهم في مأزق والخيلُ لم تَتَبدَّدِ

ثم قال أبو هلال بعد إيراد الأبيات: "وهذا أول من اعتذر من هزيمة رويت عن العرب" (الصناعتين، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل ص٣٩٨، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ). وقوله ليس دقيقًا؛ فقد نقلنا من قبل في هذا البحث مَنْ اعتذر من فراره من شعراء الجاهلية.

(٢) السيرة النبوية ١٩/٢.

(٣) تستدعي حجج الاشتراك عند بروطون: "المعتقدات أو القيم المشتركة مع المتلقي، والتي تحتوي مسبقًا، بشكل من الأشكال، الرأي الذي يكون موضوعًا لمشروع الاقتناع" (انظر:

أرسطو[1]. إذن هي بدايةٌ تلامس القلوب وتستجلب العاطفة، وتستمطر منهم تصديقه.

يقول: "قاتلتُ حتى الموت، حتى تلوَّن مُهري بالدم المنتثر الذي علاه الزبد، وهذه منزلةٌ من القتال لا مزيد عليها؛ أأُقتل يا قوم، وهذه حالي وهذا بأسي؟! ألم أفعل من أمور القتال ما يشفعُ لي؟"، وهو ههنا يُحرِّك عاطفةَ الشفقة فيهم، بل عاطفة العرفان لصنيعه ممن يُتوقَّعُ منهم اللوم، فيقبلون منه العذر إذ قد ترك القتال، أو قُل: توقَّف عنه.

ثم هو في خلال ذلك يقلب القضية، فيجعل من التهمة سبيلًا للدفاع، باتخاذه الخطاب العاطفي في قوله: "والأحبَّةُ فيهم"؛ إذ إن هذه التهمة: كيف تفرُّ عن أحبابك؟ فيقول: لقد فررت مع أنَّ أحبابي هنالك؛ وما كان لمثلي أن يصنع هذا إلا لشدة الموقف؛ لأن مثلي ما كان له أن يفرَّ إلا لما لا يُحتمل أو يُطاق.

لقد عمد الشاعر إلى حصر المعنى في هذه الصورة: صورة المهر المختلط بالدماء شنيعة المنظر؛ ليصرف الأنظار عن سوأة ما صنع من خليقة الهَرَب المكروهة عند العرب، ولعله نجح في تنسيتهم هذا مؤقَّتًا بهذه الصورة المكبَّرة للدماء التي علتْ وجه الفرس –وهي في الحقيقة ليست له بعذر؛ فالقتال

الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١، ترجمة محمد مشبال وعبدالواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١/٢٠١٣م).

(١) قال: "والأشياء المُقْنِعة: إما قولٌ تروم منه صحةَ قولٍ آخر، وإما شهادة. والشهادة: إما شهادة قول، وإما شهادة حال. وشهادةُ القول: مثل الاستشهاد بقولِ نبيٍّ أو إمام أو حكيم أو شاعر... وأما شهادة الحال: فإما حال تدرك بالعقل، أو حال تدرك بالحس. فأما الحال التي تدرك بالعقل فمثل فضيلة القائل، واشتهاره بالصدق والتمييز..." (انظر: الخطابة لأرسطوطاليس، بتلخيص ابن سينا ص٩). والحارث إنما اعتمد على ثقتهم به وبكلامه؛ فهو من أشراف قومه، وممن لا يُتَّهم فيهم بالكذب.

جميعُه لا يخلو من الدماء– وهو ما يُسمَّى في المحاججة بطريقة (التأطير)[١]. ثم لم يترك لهم أنفسَهم لتعود إلى حقيقة الأمر، بل زادها عاطفيَّةً على عاطفيَّتها الآنيَّة، فأطلق هذا الخبر الذي يُفصِحُ باللفظ، لا بالإيحاء، عن حقيقة الصورة الماضية: "وَعَرَفْتُ أَنِّي إنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ". فكأنه رأى اللحظة مناسبة –والقوم فيما هم فيه من الانشغال بصورة المهر المضرَّج– أن يبوح بما كان يخاف أن يبوحَ به من قبل، فلعل القوم عاذروه حينئذٍ، أو لعلَّهم لن يلتفتوا إلى ما يقول؛ انشغالًا منهم بالصورة التي قبل.

وهذا يستبينه كلُّ قارئ للبيتين، فالصورة مُشْغِلةٌ حقًّا عما سيأتي بعدها من اللفظ.

لقد وُفِّق الحارثُ في إيراد هذه الحُجَّة بهذه الطريقة، أو وُفِّق في الدفاع عن صنيعه في هذا الشعر، بغضِّ النظر عن حقيقة صحة ما صنعَ في الواقع.

ثم أخذ الشاعر يتسلسل في الحُجج، بحجةٍ أخرى مستولدةٍ من هذه الحُجة: "وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي" أي عندئذٍ، أي إن أنا قُتلت، فيكون خطأً ما صنعتُ مما يُزعم أنه بسالة، وهو في حقيقته تهوُّر؛ إذ لن يَضرَّ عدوِّي قتلي، بل سينتفع به، وهذا ما أرادوا، وهذا ما منعتُهم منه[٢]!

(١) وهي تقوم أساسًا على "عرض الواقع من وجهة نظر معينة، بتفخيم بعض المظاهر مثلًا، وتهوين أخرى لأجل استخلاص شرعية الرأي" (انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١).

(٢) إن من المستقرِّ المتعارف عليه أنَّ الأصل في القتال جَبْهُ العدوِّ وإزاحتُه، فإذا كان اليقين أن هذا غير متحقِّق، فإنَّ العقول ستأبى المواصلة فيه. وهذه حُجةٌ طرحها الشاعر في خلال هذا الشعر، ربما تدخل فيما أطلق عليه بروطون: حُجج الاشتراك، وهذا النوع من الحجج يستدعي "المعتقدات أو القيم المشتركة مع المتلقي، والتي تحتوي مسبقًا، بشكل من الأشكال، الرأي الذي يكون موضوعًا لمشروع الاقتناع".(انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١).

إنه يستعملُ في ردّه هذا حيلةً أو أداةً إقناعية أخرى يسميها علماءُ النفس (العقلنة) أو (التبرير)[١]، وهي حيلةٌ دفاعيةٌ معروفةٌ من أدوات الدفاع عن النفس، يبحث بها صاحبها عن تسويغ فعلٍ لا يليق به أو فعل يحمل صفة الشَّناعة ويدعو إلى الإنكار، فـ"يبرّر المرء بهذه الحيلة سلوكه ومعتقداته وآراءه ودوافعه المستهجنة بأن يعطينا أسبابًا معقولةً لها"[٢]؛ إنَّ الحارث في خطابه قد استخدم عقله في موضعين: موضع انفراده في القتال وأنه سيُقتل لا محالة إن واصل القتال، وموضع أنه نجا بنفسه ليعود إلى قتالهم في موقفٍ آخر، والعقل قد يقبل هذا ويُسوِّغُه، فهذا احتجاجٌ آخر عقليٌّ (بالمصلحة الراجحة).

وفي الكلام –من طرْف خفيّ– تخطئةٌ لهم، ففيه من المعنى: إن المبتغى من القتال إيقاعُ الضرر بالعدو، والأذى به، فإنْ أنا قُتلتُ لم يقع هذا المراد؛ أليس من السَّفه حينئذٍ أن أصنع ما كنتم تبتغون؟ فكيف لو كان المبتغى من هربي من هذا الموضع الذي قُتل فيه الأحبة أو أوذوا أو أُسروا؛ أن أعود لأنتقم لهم؛ فليس المقصود أني أهرب من أجل الهرب، كلا، بل إني قد غادرتُهم لأعود:

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبّةُ فِيهِمُ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فالحُجَّة إذن –لو شئنا تصويرها في خُطاطة– حُجَّةٌ ذاتُ حركةٍ دائريَّة: (تركهم، ليعود)؛ فلا بأس حينئذٍ من هذا الترك؛ لأنه سيعود، فهو ليس تركًا إذن، بل هو بدايةُ العودة؛ أفليس من الحمق حينئذٍ أن يقطع طريق هذه العودة بإيقاعه نفسَه في مهاوي الرَّدى!

(١) كلمة (التبرير) بهذا المعنى ليست دقيقة اشتقاقيًّا، وإنما يقصدون (التسويغ)، وقد أثبتُّ الشائع في علم النفس.

(٢) موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، لعبد المنعم الحفني ص٢٠٣ (مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٧٨م).

إنَّ هذا النوع من الحجة ينتمي إلى (الحُجج القائمة على بنية الواقع وفقًا للروابط)، إحدى هذه الحُجج -كما عند بيرلمان- الحجةُ النفعية، وهي التي تربط قيمة السبب بقيمة نتائجه، كهذا المثال: "هذه السياسة جيدة؛ لأن نتائجها المتوقعة جيدة"، وفي هذه الحالة يتعلق الأمر كما يقول بيرلمان، بالانتقال "من قيمةٍ مرتبطةٍ بالثمرة، إلى قيمةٍ مرتبطةٍ بالشجرة!"(١). وهذه الحجة في رأيه "تتعرض للنقد من أصحاب التصورات المطلقة أو القطعية للقيم، خاصةً الأخلاقية"(٢)، كشناعة الفرار في الذوق العربيّ العامّ إذ ذاك.

إنَّ الجدل الدائر في هذين البيتين جدلٌ خطابيٌّ(٣) حِجاجيٌّ بكلِّ ما تحمله الكلمةُ من معنى، وقد أداره الشاعرُ بنفسه، من غير أن يُورد حجج المخالفين، إلا ما استقرَّ في النفس من معرفة سوء تلك الفِعلة. وهو يعتمد على وجود (الجمهور) المترقِّب كيف سيجيب الشاعر عن خطيئةٍ في ظاهر عُرْف مجتمعه وقومه.

إنَّ الشاعر هنا يجنح إلى استعمال الاستعارة في دعم الحُجج العقلية، وللقوم وَلَعٌ بمثل هذه الإجراءات الشعرية كالتشبيه والاستعارة والكناية ونحوها،

(١) انظر: تاريخ نظريات الحجاج، لبروتون وجوتييه ص٥٠.

(٢) انظر: تاريخ نظريات الحجاج ص٥١.

(٣) وهو يدخل ضمن الخُطب القضائية عند أرسطو، وقد قسَّم أرسطو الخطب اليونانية إلى ثلاثة أنواع: خطبٍ استشاريَّة، وموضوعها النصح بفعل شيء أو تركه. وقضائيَّة، وموضوعها الاتهام والدفاع. واستدلاليَّة، وموضوعُها المدح والذمّ. واعتمد في تقسيمه على عنصر الزَّمن، فالاستشاريَّة للحُكْم على أمورٍ مستقبليَّة، والقضائيَّةُ للحكم على أمورٍ ماضية، والاستدلاليَّة للحكم على أمورٍ حاضرة. وحدَّد لكل لونٍ غاية، فالاستشاريَّةُ غايتها تبيين النافع والضارّ، والقضائيَّة غايتها تمييز المشروع من غير المشروع، والاستدلاليَّة غايتُها بيان الجميل أو القبيح من الأفعال (انظر: الخطابة، بالترجمة العربية القديمة، لأرسطوطاليس ص ١٦-١٩، حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م).

وربما صرفتْهم عن كثيرٍ مما يؤمنون به مما استقرَّ في وِجدانهم، إن هم استحسنوها.

جاء في (العِقْد الفريد): سُئل بعض علماء الشعر: من أشعر الناس؟ قال الذي يُصوِّر الباطل في صورة الحق، والحقَّ في صورة الباطل، بلُطف معناه، ورقّة فِطْنته، فيُقَبِّح الحَسنَ الذي لا أحسن منه، ويُحسِّن القبيح الذي لا أقبح منه. ثم قال ابن عبد ربه: فمن تحسين القبيح قولُ الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بَدْر (فذكر أبيات الحارث الثلاثة). ثم قال: وهذا الذي سمعه صاحب الهند رُتْبيل، فقال: "يا معشر العرب، حَسَّنتم كل شيء فحَسُن؛ حتى حَسَّنتم الفرار!"(١).

* * *

في مناسبةٍ أخرى ظنّ الحارث بن هشام أبا سفيان بن حربٍ يُعرّض به في بعض شعره حين قال أبو سفيان:

وَلَوْ شِئْتُ نَجّتْنِي كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ... وَلَمْ أَحْمِلْ النَّعْمَاءَ لِابْنِ شَعُوبِ
وَمَا زَالَ مُهْرِي مَزْجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمُ ... لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتّى دَنَتْ لِغُرُوبِ
أُقَاتِلُهُمْ وَأَدَّعِي يَا لَغَالِبٍ ... وَأَدْفَعُهُمْ عَنِّي بِرُكْنٍ صَلِيبِ(٢)

لقد استدعتْ تلك الأبيات الحارثَ نفسَه مرةً أخرى ليذُبَّ عن نفسه، وكأنما قد صار شغله الشاغل الدفاع عن تهمته تلك، قال ابن هشام: "وإنما أجاب الحارثُ بنُ هشام أبا سُفيان لأنه ظن أنه عرَّض به في قوله: "وما زال مُهْري مَزْجَرَ الكلب منهم"؛ لفرار الحارث يوم بدر"(٣)؛ فقال الحارث بن هشامٍ:

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ١٨٤/٦ (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).

(٢) السيرة النبوية ٧٥/٢-٧٦.

(٣) السيرة النبوية ٧٥/٢-٧٦. ومعنى مَزْجَر الكلب: مسافة زجر الكلب، أي أنه كان قريبًا لم يفرّ.

وَإِنّـك لَـوْ عَايَنْـتَ مَـا كَـانَ مِـنْهُمُ لَأُبْـتَ بِقَلْـبٍ –مَـا بَقِيـتَ– نَخِيـبِ[1]
لَدَى صَحْنِ بَدْرٍ، أو لَقَامَتْ نوائحٌ عَلَيْـكَ، وَلَـمْ تَحْفِـلْ مُصَـابَ حَبِيـبِ
جَــزَيْتُهمْ يَوْمًــا بِبَــدْرٍ كَمِثْلِــهِ عَلَــى سَــابِحٍ ذِي مَيْعَـةٍ وَشَـبِيبِ[2]

يقول: لو رأيتَ ما رأيتُ أنا في يوم بدر لجبُنتَ وذهبَ عقلُك؛ ففررتَ، ولم تحفل حينها لموت حبيبٍ قد مات، وإلّا تفعل فإنك كنت ستُقتل وتنوح عليك النوائح. والفرار محذوفٌ مقدَّرٌ يقتضيه السياق، وفي البيت تقديمٌ وتأخير يُفهم من الكلام.

ثم يقولُ: إنما فعلتُ ما رميتني به بسوء ظنِّك؛ لأجزيَهم كما وعدتُ ذلك اليوم –يوم بدرٍ– بيوم أُحُد، وقد صدقتُ ما وعدتُ به فلم أُخلِف، ووفيتُ بما قلت. وقد ساعد الحارث في الردّ ما كان في يوم أحدٍ من تقدم لجيش الكافرين، ما جعل حجاجه الأول يبدو كالصحيح، ولذلك أشار إليه هنا في قوله: "جَزَيْتُهمْ يَوْمًا بِبَدْرٍ كَمِثْلِهِ"، فهو يحتجُّ هنا بجانب خُلقيّ هو (الوفاء) بما يُنبئ عن صدقه والثقة فيه واستقامة حُجَّته.

وقد استخدم الحارث في ردّه على أبي سفيان بن حرب القضية الشرطية المنفصلة (إمّا – أو)، فترتيب كلامه منطقيًّا: لو عاينتَ ما كان منهم لم يكن لك إلا أمران: إما أن تؤوب فارًّا بقلبٍ منخلع، أو تقتل فتنوح عليك النوائح. فإحدى

---

(١) النخيب: الجبان الذي لا فؤاد له (لسان العرب: نخب).

(٢) هذه رواية الطبري (انظر: تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد ٥٢٤/٢ (دار التراث، بيروت، ط١٣٨٧/٢هـ)؛ وقد اخترتُ روايته لجودتها عن رواية السيرة لابن هشام (٧٧/٢) الذي وردت فيه الأبيات مقلوبةً بعيدة السياق، على هذا النحو:

جَــــزَيْتُهمْ يَوْمًــــا بِبَــــدْرٍ كَمِثْلِــــهِ عَلَــــى سَــــابِحٍ ذِي مَيْعَــــةٍ وَشَــــبِيبِ
لَــدَى صَــحْنِ بَــدْرٍ، أَوْ أَقَمْــتَ نَوَائِحًــا عَلَيْــكَ وَلَــمْ تَحْفِــلْ مُصَــابَ حَبِيــبِ
وَإِنّــك لَــوْ عَايَنْــتَ مَــا كَــانَ مِــنْهُمُ لَأُبْــتَ بِقَلْــبٍ مَــا بَقِيــتَ نَخِيــبِ

القضيتين منفصل ومعاند للأخرى، وهما لا يرتفعان معًا ولا يجتمعان معًا[١]. والمعنى: أنك كنت ستصنع ما صنعتُ -لزومًا- يا أبا سفيان.

لقد أراد الحارث لا الرد على أبي سفيان بمثل هذه الحجج، بل أراد إبلاغ رسالة إلى قومه وإلى كل من يسمع ممن يلومه ليقنعهم بصواب موقفه، فالحجاج في مثل هذا الموقف أداةٌ تواصليَّةٌ في أساسها، "إن الترابط بين الحجاج والتواصل يتوسع ليشمل ذلك الذي يقوم بين الحجاج والإقناع، فالحُجَّة لها غاية إقناعية أصيلة؛ لأنها تبحث عن إقناع المتلقي بفكرةٍ ما، أو جعله يتخذ سلوكًا معيَّنًا. أي أن الاهتمام بالحجة يقتضي ضمنيًّا الاهتمام بالإقناع"[٢].

والشاعر هنا أيضًا يستخدم أداةً إقناعيَّة أطلق عليها المناطقةُ (شهادة الحال)، ذلك أنَّ الأشياء المُقْنِعة عندهم: إما قولٌ تروم منه صحةَ قولٍ آخر، وإما شهادة. والشهادة: إما شهادة قول، وإما شهادة حال، وأما شهادة الحال فمنها ما يُدرك بالعقل، ومنها ما يُدرك بالحسّ، والحال التي تُدرك بالحسّ فإما قولٌ وإما غير قول، والقول مثل: التحدي، واليمين، والعهود[٣]؛ وهذا ما نقصده هنا؛ إذ قطع الحارث عهدًا على نفسه، ووفى به؛ هذا ما يحتجُّ به في البيت الأخير من شعره؛ وهو خطابُ إقناعه.

وهو هنا يعيد ما ابتدأه من حُجَّة للدفاع عن نفسِه، ومن استخدام حيلة (التعقُّل أو العقلنة) كما مرَّ في أبياته في جواب حسان؛ من أنه غادر المعركة في تلك الساعة لشدَّة ما رأى، لقد رأى الموت، وهو إن لم يفعل لألقى بنفسه في

(١) انظر: المنطق، لمحمد رضا المظفر ص١٣٢ (دار التعارف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٦م).

(٢) تاريخ نظريات الحجاج، تأليف فيليب بروتون وجيل جوتييه ص١٤ (ترجمة الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط١/١٤٣٢هـ).

(٣) انظر: الخطابة، لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٩.

التهلكة، فلم تُمْكنه العودة إلى أعدائه للانتقام منهم، كما قد صنع الآن، أفتُراني صنعتُ إثمًا يا أبا سفيان؟ هذا معنى ما في الأبيات من حُجَّة، ولا شك أنَّ فَهْمَها على هذه الصورة متصلٌ اتصالًا وثيقًا بثلاثة أبياتٍ الشهيرة التي قالها الحارث بنُ هشامٍ قبل، في سياقٍ ثقافيٍّ وفنِّي لا يكادُ ينقطع في تلك الحرب الدائرة بين الفريقين في تلك الأيام الشديدة من صدر الإسلام.

* * *

النصُّ الثاني: هُبيرةُ بن وهب

لمَّا كانت غزوة الخندق (سنة ٥ هـ) أخزى الله الأحزاب، وألقى الرُّعب في قلوبهم، فهُزموا، وشُرِّدوا، وفرُّوا من جند الله عز وجل، وكان ممن قُتل منهم في تلك الغزوة فارس قريشٍ عمرو بن وُدٍّ الذي دعا للنزال في رهطٍ معه، فنازله عليُّ بن أبي طالب فقتله، وفرَّ عنه رهطُه وتفرَّقوا، وفي هذا يقول مُسافع بن عبد مناف بن وهبٍ الجُمَحي باكيًا عمرَو بن ودٍّ، وذاكرًا خِذلان رهطه إياَّه، وتركهم إيَّاه يُقتل:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ كَانَ أَوّلَ فَارِسٍ ... جَزِعَ الْمَذَادِ وَكَانَ فَارِسَ يَلْيَلِ
سَمْحُ الْخَلَائِقِ مَاجِدٌ ذُو مِرّةٍ ... يَبْغِي الْقِتَالَ بِشِكّةٍ لَمْ يَنْكُلِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ حِينَ وَلَّوْا عَنْكُمْ ... أَنَّ ابْنَ عَبْدٍ فِيهِمُ لَمْ يَعْجَلِ
حَتّى تَكَنَّفَهُ الْكُمَاةُ وَكُلُّهُمْ ... يَبْغِي مَقَاتِلَهُ وَلَيْسَ بِمُؤْتَلِي

وكان ممن هرب يوم الخندق هُبيرة بن وهب[1]، الذي قال يعتذر من ذلك، ويبكي عمرو بن ودٍّ القتيل بسيف عليٍّ رضي الله عنه:

لَعَمْرِي مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمّدًا ... وَأَصْحَابَهُ جُبْنًا وَلَا خِيفَةَ الْقَتْلِ

(١) شاعرٌ من قريش، أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح، ففرَّ إلى نجران وأقام بها، ومات على كفره (انظر: المغازي، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد ٨٤٩/٢ (تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣/١٤٠٩هـ).

وَلَكِنَّنِـي قَلَّبْـت أَمْـرِي فَلَـمْ أَجِـدْ لِسَـيْفِي غَنَـاءً إِنْ ضَـرَبْتُ وَلَا نَبْلِـي
وَقَفْت فَلَمَّـا لَـمْ أَجِـدْ لِـي مُقَـدَّمًا صَـدَدْتُ كَضِـرْغَامِ هِزَبْـرٍ أَبِـي شَـبْلِ
ثَنَى عِطْفَهِ عَنْ قِرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ مَكَـرًّا، وَقِـدْمًا كَـانَ ذَلِـكَ مِـنْ فِعْلِـي

إن الحُجَّة هنا زعمُ (التعقُّل) لا الطَّيش والسَّفَه، يقول: ما فررتُ جُبنًا ولا خوفًا من أن أقتل، وإنما تدبَّرت في أمري فلم أجد فائدةً للقتال والتقدُّم؛ فرجعتُ، ولو كان الأمر إلى هذا الحدِّ من الإقناع لربما ساغ، ولكنه غالى ودخل في حالة من حالات (الإنكار)[1] لأن يكون قد جبُن، فقال: حين تدبَّرت فرجعت، رجعتُ رجوع أسدٍ هِزَبْر، ثم أوغل في وصف ذلك الأسد الذي عنى به نفسه من أنه حين واجه قِرْنه في القتال صدَّ عنه حين لم يجد سبيلًا لهجومه؛ فهو أسدٌ لم يهرب، ولم يخف.

وهذا الإيغال في مدح النفس والتفاخر بها في موضع التهمة والتشنيع نوعٌ من (التعويض) النفسي، يملأ به المتَّهم بالعيب ما نقص من أخلاقه أمام الناس، هو في المقابل يشغلهم بمثل هذه الحيلة عما أحضروه من التهمة، إلى ذكر مآثر يعرفونها عن الشاعر. وهي وسيلةٌ دفاعيَّةٌ مكشوفة، لا تنطلي على كثيرٍ من الناس.

وقد نُقل في (عيون الأثر) عن الأصمعي أنه كان يفضِّل اعتذار الحارث، وأن خَلَفًا الأحمر كان يذهب إلى تفضيل اعتذار هُبَيْرة؛ ثم دوَّن صاحب الكتاب رجحان قول خلف، وأسباب تقديم شعر هبيرة، فقال: إنهما وإن "تقاربا لفظًا ومعنًى، فليس ببعيدٍ من أن يكون الثاني أجودَ من الأول؛ لأنه أكثر انتفاءً من الجبن ومن خوف القتل، وإنما علَّل فراره بعدم إفادة وقوفه فقط، وذلك في الأول جزءُ عِلَّته، والجزء الآخر قوله: أقتل، وقوله: رموا مهري بأشقر مزبد، يعني الدم.

(١) The Ego and The Mechanisms of Defence, Anna Freud, Karnak books, Exeter, 1993. P. 70.

ويحتمل أن يكون ذلك مقيَّدًا بكون مشهده لا يضرُّ عدوه، ومع ذلك فالثاني أسلم من ذلك معنى وأصرح لفظا ومعنى"(١).

ولا شكَّ عندي في أنَّ شعر الحارث مقدَّم، لافتضاضه بكارة المعنى، ولشدَّة احتجاجه بالعودة، وهذا ما لم يذكره هبيرة، ولتخلُّصه الحَسَن اللطيف إلى المعنى، وهذا ما تورَّط في خلافه هُبيرة؛ إذ كابرَ فزعم أنه ليثٌ هزبرٌ أبو شِبْلِ، مع أنَّ صنيعَه مذمومٌ مكروهٌ عند العرب(٢)!

وحتى لفظة (الصدود) تشي بأخذه المعنى من الحارث، ثم تباطر فيه – وهذا لم يصنعه الحارث– بأنه صدَّ كالضرغام الهِزَبر، ولم يذكر ما ذكره الحارث من أنه فرَّ ليعود؛ فالحركة الدائرية لم تكتمل هنا. وبين شعر الحارث في بدر، وشعر هُبيرة في الخندق ثلاث سنواتٍ فحسب، وكلاهما رجلٌ قرشيّ، فلا شكَّ – عند تدقيق النظر– في استنفاد هُبيرة أبياتَ الحارث بن هشام.

(١) عيون الأثر في المغازي والسِّيَر، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ٣٣٧/١ (تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

(٢) وإلى هذا التفضيل ذهب العصاميّ، ولكنه لم يبيِّن أسبابَه، إذ قال معقِّبًا على هذين الشِّعرين: "قلت: رأيت في كتاب ألف با للبلوي نقلًا عن الأصمعي وجماعات: أحسنُ ما قيل في الاعتذار عن الفرار، قول الحارث بن هشام هذه الثلاثة الأبيات. وخالفه من أئمة اللغة والأدب خلفٌ الأحمر ومن تبعه، فقال: أحسن ما قيل في الاعتذار عن ذلك: قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، زوج أم هانئ بنت أبي طالب [فذكر أبيات هبيرة]، ولعمري، كلتا القطعتين [كذا] غايتان في المعنى المراد؛ ما لبليغٍ إلى أفضل منهما منتجع ولا مراد؛ إلا أنَّ الذي يحدوني إليه فكري وذوقي؛ ويجذبني بِردني وطوقي: هو ما ذهب إليه الأصمعي، فهل أنت أيها الناظر معي، فإن معي على ذلك شهودًا معدَّله؛ تثبت لعبد الملك الفخر له". (سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، للعصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي ١٠٨/٢، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٩هـ).

ثم يخرج هُبيرة من فخره هذا إلى رثاء عمرو بن ودّ في محاولة لإبعاد الأذهان أقصى ما يكون عن فعلته، ولإظهار حُبِّه للرجل، وأنه لم يكن له أن يفرَّ عنه:

فَـلَا تَبْعَـدَنْ يَـا عَمْـرُو حَيًّـا وَهَالِكًـا وَحُـقَّ لِحُسْنِ الـمَدْحِ مِثْلُك مِنْ مِثْلِي
وَلَا تَبْعَـدَنْ يَـا عَمْـرُو حَيًّـا وَهَالِكًـا فَقَدْ بِنْتَ مَحْمُودَ الثَّنَا مَاجِدَ الأَصْلِ[1]

إلى آخر تلك القصيدة.

* * *

النصُّ الثالث: تميمُ بن أسد:

لما نقضت قريشٌ صلح الحديبية بنصرها بني بكرٍ بن عبد مناة بن كنانة حين عدتْ على خزاعة، وخزاعةُ كانوا في حِلف النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ استنصرتْ خزاعةُ النبيَّ ﷺ، فانبرى لينصرهم، وكان هذا سبب فتح مكة (في رمضان سنة ٨ هـ). وكان هذا النقض قُبيل الفتح بقليل.

وكان من حديث ذلك أنَّ أحد المقتولين من خزاعة كان اسمه مُنَبِّهًا، وكان مفئودًا، وكان معه رجلٌ منهم اسمه تميم بن أسد، قال له منبِّهٌ: يا تميمُ انجُ بنفسِك، فأمَّا أنا فوالله إني لميِّتٌ قتلوني أو تركوني؛ لقد انبتَّ فؤادي. وانطلق تميمٌ فأفلتَ، وأدركو مُنبِّهًا فقتلوه[2].

(١) السيرة النبوية ٢/٢٦٧-٢٦٨.

(٢) انظر حديث نقض هذا العهد في: السيرة النبوية، لابن هشام ٢/٣٨٩-٣٩١.

فقال تميم بن أسدٍ[١] يذكر ذلك اليوم، ويُبيّن لماذا فَرَّ من صاحبه:

لَمّـا رَأَيْـتُ بَنِـي نُفَاثَـةَ أَقْبَلُـوا ... يَغْشَـوْنَ كُـلَّ وَتِيـرَةٍ وَحِجَـابِ[٢]
صَـخْرًا وَرَزْنًـا لَا عَرِيـبَ سِـوَاهُمْ ... يُزْجُـونَ كُـلَّ مُقَلَّـصٍ خَنَّـابِ[٣]
وَذَكَـرْتُ ذَحْـلًا عِنْـدَنَا مُتَقَادِمًـا ... فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَحْقَابِ[٤]
ونَشَيْتُ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ ... وَرَهِبْـتُ وَقْـعَ مُهَنَّـدٍ قَضَّـابِ[٥]
وَعَرَفْـت أَنْ مَـنْ يَتْقَفُـوهُ يَتْرُكُـوا ... لَحْمًـا لِمُجْرِيَـةٍ وَشِـلْوَ غُـرَابِ[٦]

إنـه ثمـة تهويـل للصـورة فـي الأبيـات السـابقة لكسـب عاطفـة المخـالفين، وتهيئتهم للنتيجة الآتية في البيت التالي:

قَوَّمْـتُ رِجْـلًا لَا أَخَـافُ عِثَارَهَـا ... وَطَرَحْـتُ بِـالْمَتْنِ الْعَـرَاءِ ثِيَـابِي[٧]

هنـا اعترافٌ بـالهرب، مـن غيـر مواربـةٍ أو تملُّص أو تفلسـف. إنـه يقـول: هربتُ لئلا أموت، فقد شممت رائحة الموت، وخفت وقع المهند الذي سيُهلكني. وهذا تصريح نفعيٌّ بحت بحب الحياة وتجاهل المحامد المعنوية من الإقدام والبسالة ونحوها، إنها حُجَّةٌ (براغماتيَّة) كما يسمِّيها بعضُ الدارسين، "وحدُّ هذه الحجة أنَّها الحجة التي يحصل بها تقويمُ عمل ما أو حدثٍ ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية... إن مدار هذه الحجة كما قلنا على تثمين حدث ما بذكر

(١) قال ابن هشام: "وتُروى لحبيب بن عبد الله الأعلم الهُذليّ" (السيرة النبوية ٣٩٢/٢). وشرح غريب الأبيات الذي سيأتي بعد من المصدر نفسه.
(٢) الوتيرة: الأرض الممتدة. والحجاب: مَا اطمأنَّ من الأرض وخفي.
(٣) لَا عريب: أَي لَا أحد. ويزجون: يسوقون. والمقلص: الْفرس المشمر. والخناب: الْفرس الْوَاسِع المنخرين.
(٤) الذحل: طلب الثأر. والأحقاب: السنون.
(٥) نشى: شم. والمهند القضاب: السَّيْف الْقَاطِع.
(٦) المجرية: اللبؤة التي لها جراء، أَي أولاد. والشِّلو: بَقِيَّة الجسد.
(٧) الْمَتْن: مَا ظهر من الأَرْض وارتفع. والعراء: الخالي لا يخفى فيه شيء.

نتائجه، فعلى هذا لا يكون المقصود من هذه الحجة مجرد التثمين، بل توجيه العمل أيضًا"[١].

إنه يبني خطابه إذن على مقدمةٍ مطولة يذكر فيها الأسباب، ثم يقرنها بالنتيجة التي جعلها صالحةً يمليها العقل السليم.

ثم إنه وضع في حجاجه لبنةً ثالثة، بعد لبنتَيْ الأسباب والنتيجة، لبنة التخويف بالافتراض، إذ يقول للائمته: ثم إنك لو شهدت لدخلك الرعب حتى بلت من الخوف؛ والمعنى أن (نجائي) هو عين العقل والتصرُّف السليم مع أن القوم يعلمون أن لا أترك صاحبي عن طِيب نفس، إنه نداء العقل (البراغماتي) إذن، يقول[٢]:

وَنَجَـوْتُ لَا يَنْجُـو نَجَـائِي أَحْقَـبٌ عِلْـــجٌ أَقَـــبُّ مُشَـــمِّرُ الْأَقْـــرَابِ[٣]
تَلْحَـى وَلَـوْ شَـهِدَتْ لَكَـانَ نَكِيرُهَـا بَـــوْلًا يَبُـــلُّ مَشَـــافِرَ الْقَبْقَـــابِ[٤]
القَــوْمُ أَعْلَــمُ مَــا تَرَكْــتُ مُنَبّهًــا عَـنْ طِيـبِ نَفْـسٍ فَاسْـأَلِي أَصْـحَابِي

إن في البيت الأول من هذه القطعة تجاهلًا للإثم، وطمرًا له بالإيغال في الفخر؛ وذلك ليًّا للأعناق عما هو فيه من الخطأ، وهذه طريقة تتخذ مبدأ: (التجاهل والحيدة عن المسألة)[٥]، فمن دفاعٍ عن النفس يعمد الشاعر عمدًا إلى ذكر محامدها، متغافلًا عما يُرمى به من النقائص؛ وكلُّ هذا للتعمية والإلهاء.

---

(١) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٥٠.

(٢) السيرة النبوية ٣٩١/٢. وشرح الغريب من الكتاب نفسه.

(٣) نجوت: أسرعت. وأحقب: أَي حمار وَحش أَبيض الْمُؤخر، وَهُوَ مَوضِع الحقيبة. وعلج: غليظ. وأقب: ضامر الْبَطن. ومشمر الأقراب: من قبض الخواصر وَمَا يَليهَا. ويروى: "مقلص الأقراب"، وَهُوَ بِمَعْنَاهُ.

(٤) تلحى: تلوم. والمشافر: النواحي والجوانب. والقبقاب: من أَسمَاء الْفرج.

(٥) انظر: المغالطات المنطقية: فصول في المنطق غير الصوري، لعادل مصطفى ص٥٩ (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١/٢٠٠٧م).

ثم إن الشاعر يتجاهل ذكر لفظ (الفرار)، ويذكر لفظة (الترك)؛ تنائيًا بنفسه وحاله عن هذه النقيصة، فهو نوعٌ من الدفاع النفسي الذي يصوره لغويًّا باختيار ألفاظه.

* * *

النصُّ الرَّابع: حِماسُ بن قيس:

من أخبار فتح مكة أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسُهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسًا بالخَنْدَمة[1] ليقاتلوا، وقد كان حِماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعِدُّ سلاحًا قبل دخول رسول الله ﷺ مكة، ويُصلح منه، فقالت له امرأته: لماذا تُعدُّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما أراه يقوم لمحمدٍ وأصحابه شيء. قال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمَك بعضَهم، ثم قال:

إنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فَمَا لِي عِلَّهْ
هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّهْ
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ[2]

ثم شهد الخَنْدَمة مع صفوان وسُهيل وعكرمة، فلما لقيهم جيشُ المسلمين انهزموا، فخرج حِماسٌ منهزمًا فارًّا حتى دخل بيتَه، ثم قال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي. قالت: فأين ما كنت تقول؟!

(١) الخَنْدمة: جبل معروف عند مكة، كانت به وقعة يوم فتح مكة، ومنه يوم الخَنْدَمَةِ (انظر: لسان العرب: خندم).

(٢) الألَّة: الحَرْبة في نصلها عِرَضٌ، والألَّة: السِّلاح وجميع أداة الحرب (انظر: لسان العرب: ألل). الغِرارُ: حدُّ الرمح والسيف والسهم. وقيل: والغِراران شَفْرتا السيف، وكل شيء له حدٌّ فحدُّه غِرارُه (انظر: لسان العرب:: غرر).

فقال حِماسُ بن قيسٍ يردُّ على امرأته، ويُحاجج عن نفسه:

إنّــكِ لَــوْ شَــهِدْت يَــوْمَ الــخَنْدَمَهْ
إذْ فَــرَّ صَــفْوَانُ وَفَــرَّ عِكْرِمَــهْ
وَأَبُــو يَزِيــدَ قَــائِمٌ كَالمُوتِــمَهْ(١)
وَاسْــتَقْبَلَتْهُمْ بِالسّــيُوفِ الــمُسْلِمَهْ(٢)
يَقْطَعْــنَ كُــلَّ سَــاعِدٍ وَجُمْجُمَــهْ
ضَــرْبًا فَــلَا يُسْــمَعُ إلَّا غَمْغَمَــهْ(٣)
لَهُــمْ نَــهِيتٌ خَلْفَنَــا وَهَمْهَمَــهْ(٤)
لَــمْ تَنْطِقِــي فِــي اللّــوْمِ أَدْنَــى كَلِمَــهْ!(٥)

---

(١) أبو يزيد هو سُهيل بن عمرو المذكور في الخبر، من سادة قريش، أسلم عام الفتح وحسُن إسلامه (انظر ترجمته في: أسد الغابة ٣٢٨/٣). والموتمة من: أيْتَمَت المرأة وهي مُوتِمٌ: صار ولدُها يَتيمًا أو أولادُها يَتامَى، وجمعها مَياتِيمُ؛ وفي حديث عمر رضي الله عنه: قالت له بنتُ خُفَافٍ الغِفاريّ: إنني امرأةٌ موتِمةٌ تُوفِّي زوجي وتَركَهم (انظر: لسان العرب: يتم).

(٢) أي: المسلمون.

(٣) الغَمْغَمةُ والتَّغَمْغُم: الكلام الذي لا يبين، وقيل: هما أصوات الثيران عند الذُّعْر، وأَصوات الأبطال في الوَغى عند القتال (انظر: لسان العرب: غمم). قال ابن الأثير: "وأما الغمغمة فقد تكون من الكلام وغيره، لأنه صوت لا يُفهم تقطيع حروفه" (الكامل، للمبرد الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد ١٦٥/٢ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٤١٧/٣هـ).

(٤) النَّهِيتُ والنُّهاتُ: الصِّيَاح، والنَّهِيتُ أيضًا: صوت الأسد دون الزئير؛ نَهَتَ الأَسدُ في زئيره يَنْهِتُ، بالكسر (انظر: لسان العرب: نهت). والهَمْهَمة: الكلام الخفيّ، وقيل: تَرْديد الصوت في الصدر. وهَمْهَمَ الرَّعْدُ إذا سمعتَ له دَوِيًّا (انظر: لسان العرب: همم).

(٥) السيرة النبوية ٤٠٨/٢. قال ابن هشام بعدما أثبتها لحِماس: "وتُروى للرَّعَّاش الهُذَلي" (السيرة ٤٠٩/٤).

لقد استخدم حماس الجملة الشَّرطية المتَّصلة[١] (لو شهدت – لم تنطقي)، وباعد بين جُزأيها –وهي جملة في طبيعتها الاتصال– ليشدَّ السامع فيسمع رغمًا عنه تهويله للموقف.

إن الشاعر يبني خطابه الإقناعي على مقدِّمة طويلة يُهوِّل فيها الموقف، ويذكر فيها الأسباب، كأنه يُقدِّم عريضة دفاعه المدعوم بالحُجج والقرائن؛ لينتهي إلى نتيجة مؤدَّاها: وجوب الاقتناع بما صنع، وعدم الإنكار على فعله، بل (الصمت) هو ما ينبغي أن يكون الردَّ الوحيد إقرارًا لصنيعه، وامتثالًا لكل ما ذَكر.

وقد جاء في حيل دفاعه احتجاجه بفرار كبار القوم ورؤسائهم، كصفوان وعكرمة، وقد تعمَّد أن يذكر لفظة (الفرار) مسندًا إليهما في هذا الموضع لسببين: أن ينسب الفرار إلى غيره، وأنهم كانوا القدوة الذين تبعهم مَنْ معهم، فلا يحملُ هو إثمَ ما حدث، وهذا احتجاجٌ بـ(صلاح الحال) كما يذكر أرسطو[٢]؛ إذ كيف نخالف عن أمر قادتنا الكبار؟ والسبب الثاني في ذكره لفظ (الفرار) منسوبًا إلى غيره: نفيُه عن نفسه هو، فكأنَّ ما تدَّعون من حَدَث الفرار صنَعَه هؤلاء أولًا ولم أبتدئه أنا.

وفي دفاعه جانبٌ عاطفيٌّ تأثيريّ، فهو يُهوِّل مشهد القتال تهويلًا عظيمًا يُخيف القلوب: حيث برقتْ سيوفُ المسلمين، وهي تفري العظام فريًا، فتقطع الرؤوس وتحُزُّ الأيدي، قطعًا سريعًا فاتكًا، وهؤلاء الجنود الأشدَّا يُسمع لهم أصوات عظيمةٌ، وجلَبَة مُرْعِبة، وهم لا يُفلت من تحت أيديهم أحد؛ وقد كنا نسمع

(١) انظر: المنطق، لمحمد رضا المظفر ص١٣٢.

(٢) ذهب أرسطو إلى أنَّ "العوامل التي تدعو إلى بعث الثقة في الخطيب ثلاثة، إذ إن هناك ثلاثة أسباب –من غير البراهين– تدفعنا إلى الثقة، هذه هي: السدادُ والفضيلةُ والبِرّ" (مقالة: مدخل إلى الحجاج، للدكتور محمد الولي ص٢٨، وقد ترجم كلام أرسطو هذا عن الترجمة الفرنسية لكتاب الخطابة، لأرسطوطاليس المنشورة بباريس ٢٠٠٧م).

صياحَهم خلفنا ولغَطَهم الشَّديدَ، فكأنهم الأسود المُزمجرة، إنكِ إن سمعت هذا يا امرأة، أو رأيتِ ما قد رأيتُ، "لم تنطقي في اللومِ أدنى كلمة".

إنه يُثير شفقة المخاطَبين –لا امرأته وحدها– بهذا المشهد المَهُول، شفقتهم عليه، وهذا ليس فيه احتجاجٌ كلامي، بل هو حُجَّةٌ عاطفية لا برهانيَّة، إنها (بلاغة مشاعر)، أكبر منها (بلاغة استدلال)[١].

إنه يريد أن يقول: كيف لا أفرُّ وقد جعل هذا المشهدُ المرعب صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وهما من سادتنا؛ يفرَّان، وجعل أبا يزيد سُهيل بن عمرٍو وهو من قادتنا وكبرائنا واقفًا مهمومًا لا يلوي على شيء كالمرأة الموتمة، وهي ذات العيال التي مات زوجها عنها.

إنَّ هذه الأبيات تدخل ضمن ما يُعرف في الأدب العربي بـ(المُنْصفات) من الشِّعر، وفي الإنصاف نَفَسٌ حجاجي، و"لهذا كان أئمةُ البلاغة في الغرب ينصحون الخطيب... بأن يمتدح خصال الخصم الخطابيَّة، وأن يُخفي أو يُهوِّن من خصاله هو في ميدان الخطابة، وذلك من أجل ألَّا تحدث قطيعةٌ بين الشكل والمضمون"[٢].

إنَّ ههنا نوعين من الحُجة عند المنظِّرين: حجة السلطة، وحجة التأطير.

فأما (حُجَّة السُّلْطة) فهي "التي تَستخدم أعمال شخص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حُجَّةً على صحة أطروحةٍ ما"[٣]، وهي تعتمد في "الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف على قيمة صاحبها"[٤]؛ وهذا مسلك حماس في احتجاجه بصنيع ثلاثة الرجال الكبار من أشراف قومه، وصنيعُهم له قوة

(١) تاريخ نظريات الحجاج، لبروتون وجوتييه ص٢٩.
(٢) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٦٥.
(٣) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٥٢.
(٤) الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي ص٢٣٢ (عالم الكتاب الحديث، إربد ٢٠١١م).

احتجاجية يستطيع أن يحتجَّ بها من يريد الاحتجاج، فهم نموذجٌ يُحتذى به، وقدوةٌ يُؤتسى بهم. ولذا أطلق بعضهم على هذا النوع من الحُجة (حُجَّة النموذج)[١].

وأما (حُجَّة التأطير) كما يُسمّيها بعض الباحثين[٢]، فهي التي تتجه إلى جزءٍ ما فتعظِّمه وتكبِّره بُغية التأثير العاطفي في نفوس المخاطبين. وإننا نتوخَّى في عرض هذا النوع من الحُجَّة "كثرة الإشارات إلى الدقائق والرقائق المتعلِّقة بذلك الموضوع، تكثيفًا لحالة الحضور التي نريد أن يتَّسم بها موضوعُنا في ذهن السامعين، ولإحداث الانفعال أيضًا؛ إذ بقدر ما يكون الموضوع مخصوصًا يكون أبعثَ على الانفعال، ونصل إلى هذه الخصوصية بواسطة ذكر الدقائق والرقائق تلك... إنَّ مما يساعد على الإشعار بمدى حضور الحدَث ذكر مكان ذلك الحَدَث وزمانه، مع ميلٍ إلى استخدام اللفظ الحِسِّي المجسَّد دون اللفظ المجرَّد"[٣].

إنَّ هذا ما نشهده عند حِماس وهو يصف تلك الوقعة، فيعتمد التشبيه[٤]، ويختار أن ينقل لنا صورة الصوت لا لفظَه، لكي نعيش في أحداث تلك اللحظة الصعبة كما أرادها أن تكون، فهو يصفُ أصوات المقاتلين الذين هرب منهم – لشدَّتهم ومُضِيِّهم وبأسهم– بأوصافٍ مصوِّرة، كالنَّهِيت، والهمهمة، والغمغمة، ولم يقل: "لهم صوتٌ شديدٌ أو مرعب"؛ إلى ما في الشعر من صورٍ تهويليَّة أخرى لقطع السواعد والجماجم، وما وراء ذلك مما يمكن تخيُّله قياسًا على ما اختار الشاعرُ ذكره.

(١) انظر: تاريخ نظريات الحجاج، لبروتون وجوتييه ص٥٤.
(٢) انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١.
(٣) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٣٥-٣٦.
(٤) انظر في الأثر الحجاجي للتشبيه والاستعارة: الحجاج في الشعر العربي، للدكتورة سامية الدريدي ص٢٥٣.

إنَّ الشاعر يريد لا مراء أن يكسب تعاطُفنا[1]، لكي تعذِرَه زوجتُه -ونعذِره نحن- فيما صنع من تلك الفَرَّة.

ولقد اختار الشاعر (الرجَز) وهو بحر سريع النَّغم، قاطعٌ، ليُشبِّه صورةَ السُّرعة في قطع الجماجم والسَّواعد، ولئلا يكون ثمة مجال في البحر لعرض آراء المخالفين، بل هو أتى ببراهينه وحُججة سريعةً متوالية؛ ثقةً منه في نجاح أثرها في قلوب المخاطبين. وحتى القافية المنتهية بهاء السكت الصامتة الساكنة، تفي بما أراد الشاعر أن يبلِّغه من رسالة.

* * *

النصُّ الخامس: مالك بن عوف:

في غزوة حُنين (سنة ٨ هـ)، اجتمعت ثقيفٌ وهوازن على حرب رسول الله ﷺ، وكان سيد هوازن يومَئذٍ مالك بن عوف[2]، وإليه جُمَّاع الناس جميعًا من هوازن وثقيف؛ فلمَّا ثبَّت الله نبيَّه وانهزم أهلُ الطائف، فرَّ مالك بن عوفٍ من تلك المعركة، وأخزى قومه، فقال قصيدةً ميميَّةً بعد ذلك يعتذر فيها ويحتجُّ لهربه ذلك اليوم، وهو يبدؤها بهذا الغزل المقتضب المقرون بالفخر:

(١) انظر في استدرار العطف: المغالطات المنطقية، لعادل مصطفى ص٩٣.

(٢) هو مالك بن عوف من بني نصر بن معاوية، من هوازن، كان رئيس هوازن وهم يحاربون مع ثَقيفٍ رسولَ الله ﷺ في الطائف، في غزوة حُنين (انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد ٣٨٧/١١، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، ط١٤٢٢/١هـ)، ثم تألَّفه رسولُ الله ﷺ فأسلم وحسُن إسلامُه (انظر: مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، لإبراهيم بن إبراهيم قريبي ٤٧٩/٢، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط١٤١٢/١هـ).

مَنَــعَ الرّقَــادَ فَمَــا أُغَمِّــضُ سَــاعَةً نَعَــمٌ بِــأَجْزَاعِ الطَّرِيــقِ مُخَضْــرَمُ
سَــائِلْ هَــوَازِنَ هَــلْ أَضُــرَّ عَــدُوَّهَا وَأُعِــينُ غَارِمَهَــا إِذَا مَــا يَغْــرَمُ
وَكَتِيبَــــةٍ لَبّسْــــتُهَا بِكَتِيبَــــةٍ فِئَتَــيْنِ مِنْهَــا حَاسِــرٌ وَمُــلَأَّمُ
وَمُقَــدَّمٍ تَغْيَــا النّفُــوسُ لِضِــيقِهِ قَدَّمْتُــهُ وَشُــهُودُ قَــوْمِيَ أَعْلَــمُ
فَوَرَدْتُــه وَتَرَكْــتُ إِخْوَانًــا لَــهُ يَــرِدُونَ غَمْرَتَــهُ، وَغَمْرَتُــهُ الــدَّمُ
فَــإِذَا انْجَلَــتْ غَمَرَاتُــهُ أَوْرَثْنَنِــي مَجْــدَ الْحَيَــاةِ وَمَجْــدَ غُــنْمٍ يُقْسَــمُ

ثم يذكرُ ما رماه به قوه من فراره يوم حُنين من جيش النبيّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويعتذر عن ذلك بهربهم عنه وخِذلانهم إياه، ويُنسيهم ما كان منه ذلك اليوم بإلقاء اللوم عليهم، من أنه يبني وهم يهدمون، يبني لهم مجدهم وهم يهدمونه، ثم يُفضِّل نفسَه عليهم، يمنُّ عليهم، يشغلهم بمثل هذا عن فعلته:

كَلَّفْتُمُــــونِي ذَنْــــبَ آلِ مُحَمَّــــدٍ وَاَللهُ أَعْلَــمُ مَــنْ أَعَــقُّ وَأَظْلَــمُ
وَخَــــذَلْتُمُونِي إِذْ أُقَاتِــــلُ وَاحِــــدًا وَخَــذَلْتُمُونِي إِذْ تُقَاتِــلُ خَــثْعَمُ
وَإِذَا بَنَيْــتُ الْمَجْــدَ يَهْــدِمُ بَعْضُــكُمْ لَا يَسْــتَوِي بَــانٍ وَآخَــرُ يَهْــدِمُ

والحقيقة أنه كان سببًا من أسباب هدم ذلك المجد لقبيلته حين فر من المعركة فألبسهم العار، وهذا النوع من الدفاع يُسميه علماءُ النفس: (الإسقاط النفسي)، وهو حيلة دفاعية من الحيل النفسية اللاشعورية، وعملية هجوم يحمي الفرد بها نفسه بإلصاق عيوبه ونقائصه ورغباته المحرَّمة أو المستهجنة بالآخرين، كما أنها عملية لوم لغيره على ما فشل هو فيه بسبب ما يضعونه أمامه من عقبات، وما يوقعونه فيه من زلَّات أو أخطاء[1].

(١) انظر: Sigmund Freud, Case Histories II (PFL 9) p. 132

ثم إنه يتمادى فيذكر صنائعَه ويفخر بنفسه، وكأنَّ لسان حاله يقول: إنه تغرق زلتي في غمار أمجادي، ولا ينبغي أن تُذْكَر، فهو يبدأ قصيدتَه بفخر، ويُنهيها بفخر، يقول بعد الأبيات السابقة متفخرًا بنفسه:

وَأَقَبَّ مِخْمَاصِ الشَّتَاءِ مُسَارِعٍ فِي المَجْدِ يَنْمِي لِلْعُلَى مُتَكَرِّمُ
أَكْرَهْتُ فِيهِ أَلَّةً يَزَنِيَّةً سَحْمَاءَ يَقْدُمُهَا سِنَانٌ سَلْجَمُ
وَتَرَكْتُ حَنَّتَهُ تَرُدُّ وَلِيَّهُ وَتَقُولُ: لَيْسَ عَلَى فُلَانَةَ مَقْدَمُ
وَنَصَبْتُ نَفْسِي لِلرِّمَاحِ مُدَجَّجًا مِثْلَ الدَّرِيَّةِ تُسْتَحَلُّ وَتُشْرَمُ(١)

وهو في هذا المقطع من شعره يُعبِّر عن عُقدةٍ نفسية أخرى خلَّفتها في نفسه فَرَّتُه تلك، هي عُقدة العظمة في مقابل إزراء قومه عليه؛ فيدافع عن نفسه بحيلة دفاعية يسمِّيها علماءُ النفس: (التكوين العكسي)، وهي حيلة نفسية يتخذ فيها الفرد أسلوبًا يعبر عن عكس الدافع الموجود عنده، وتكون غالبًا ردة الفعل مبالغًا فيها، فالتكوين العكسي يعمل على قمع الدافع المثير للقلق والشعور بالذنب، وبذلك يستريح صاحبه مؤقتًا من القلق والتوتر المرتبط به. ومن أمثلة التكوين العكسي: الزهو والتكبُّر الناتج عن الشعور بالنقص، وكالذي يخاف ولا يريد أن يطَّلع الناس على خوفه، فيظهر الشجاعة ويغالي فيها(٢).

لقد بُنيت الأبيات على تمهيد حجاجيٍّ بالمناقب، ثم ذكر خفيفٌ لمنقصة الفرار، ثم عودةٌ إلى المناقب وإطنابٌ فيها بحيلةٍ حجاجيَّةٍ تأثيريَّةٍ عساها تطمسُ أو تُنسينا ما كان منه من مَعَرَّةِ الفرار.

ولا يبعد عن البال أن مالك بن عوف أخذ بيته: "وكتيبةٍ لبَّسْتُها بكتيبةٍ..."، من قول الفرَّار السُّلَميّ:

---

(١) السيرة النبوية ٢/٤٧٤-٤٧٥.

(٢) انظر: التحليل النفسي والإتجاهات الفرويدية المقاربة العيادية، لفيصل عباس ص٣٦ (دار الفكر العربي، بيروت، ط١/١٩٩٦م).

وكَتِيبَـــةٍ لَبَّسْـــتُهَا بِكَتِيبَـــةٍ حتَّى إذا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ بِهَا يَدِي

والفرَّار شاعرٌ مخضرم، لا ندري متى قال هذه الأبيات، ولا في أي مناسبة قيلتْ، ولكنها من أشهر الأبيات المُنْشَدَة في هذا الباب.

* * *

النصُّ السادس: قيس بن المسحَّر:

وقعت غزوة مؤتة (سنة ٨ هـ)، وكانت تسمى غزوة الأمراء؛ لأنه قُتل فيه أمراء الجيش الثلاثة رضي اله عنهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة؛ ثم أخذ الراية سيف الله خالد بن الوليد فاستنقذ الجيش، ورجع به إلى المدينة. فلما دنوا من حول المدينة تلقَّاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون، ورسول الله ﷺ مُقبلٌ مع القوم على دابَّة، فقال: "خُذُوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر"، فأُتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه، وجعل الناس يحثُون على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرَّار فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله ﷺ: "ليسُوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى"(١).

لقد ضاقت البسيطة على أصحاب مؤتة، وأظلمت الدنيا في أعينهم؛ للذي حدث ذلك اليوم؛ ففي (السيرة النبوية) عن بعض آل الحارث بن هشام، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، قال: قالت أم سلمة لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاةَ مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يَخرج، كلما خرج صاحَ به الناس: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله! حتى قعد في بيته فما يخرج(٢).

كان من ضمن أصحاب مؤتة قيسُ بن المُسَحّر اليعمري، وقد قال شعرًا يدافع فيه عما كان من أمر الناس يومئذ، ويستخدم الأساليب المختلفة في

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/٣٨٣.
(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/٣٨٣-٣٨٤.

المدافعة، فهو يبدؤه ببداية نفسيَّةٍ يستدرُّ بها عاطفة الشفقة من نفوس سامعيه، أو من نفوس متَّهميه والمشنِّعين به؛ وإنه لكي تتوقَّد الحُجَّة ينبغي إشعالُها –أحيانًا– بعناصر شعريَّة أو عاطفيَّة[1]، فهو يُقسم أولًا على طول تأنيب نفسه إيَّاه أنه لم يُقدِم، وأنه أسقط في يده في ذلك المشهد؛ فعَجَز، فلم يقدر على أن يستجير بأحدٍ، أو أن يمنع أحدًا:

فَـوَاَللهِ لَا تَنْفَـكُّ نَفْسِـي تَلُـومُنِي عَلَـى مَـوْقِفِي وَالْخَيْـلُ قَابِعَـةٌ قُبْـلُ
وَقَفْـتُ بِهَـا لَا مُسْـتَجِيرًا فَنَافِـذًا وَلَا مَانِعًـا مَـنْ كَـانَ حُـمَّ لَـهُ الْقَتْـلُ

ثم لا يلبث بعد ذلك أن يعود إلى عقله فيحتجُّ بـ(حُجة السُّلطة)، إذ يحتجُّ باتِّباع قائده خالد بن الوليد، ويصفه بأنه القائد العظيم الذي لا نظير له في معارفه العسكرية وبَصَرِه بشؤون الحرب، وهو الذي أمرنا بالتقهقر، فكان لزامًا عليَّ طاعتُه، أأُخالف قائدي يا قوم؟ إنَّ في هذا عزاءً لي. وهذه حُجَّةٌ سهلة، مفادها إلقاء التَّبِعة على غيره، والتملُّص من الخطيئة، على أننا نستشعر في الرجل أسًى لم يُفارقه حتى وهو يُحاجج عن نفسه، إذ يقول:

عَلَـى أَنَّنِـي آسَـيْتُ نَفْسِـي بِخَالِـدٍ أَلَا خَالِـدٌ فِـي الْقَـوْمِ لَـيْسَ لَـهُ مِثْـلُ

إنَّ (حُجَّة السُّلطة)[2] حُجَّةٌ مشهورةٌ متداولةٌ في مثل هذا الموقف، وهي "تستخدم أعمال شخص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حُجَّةً على صحة أطروحةٍ ما... وقد يُعمد في الحجاج بالسلطة إلى ذكر أشخاص معيَّنين

(١) انظر مقالة: مدخل إلى الحجاج، للدكتور محمد الولي ص١٨ (ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت)؛ وانظر في أهمية العاطفة في الاحتجاج: مقالة الدكتور حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج ص٢٣٩ (ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

(٢) انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١.

بأسمائهم، على أن تكون سلطة هؤلاء جميعًا معترفًا بها من قبل جمهور السامعين، في المجال الذي ذُكرت فيه"[١]، وهذا ما صنعه قيس بن المسحّر هنا، إذ احتجَّ على صواب تراجعه وانسحابه من المعركة بصنيع خالد بن الوليد القائد الهمام صاحب الاختصاص العسكريّ الذي أمر بذلك.

والشاعر قد عمد هنا أيضًا إلى الثناء على خالدٍ بأنه "ليس له مثلُ" أي في الحرب، وهذا عملٌ حجاجيٌّ متداولٌ في إطار حُجج السُّلطة[٢].

ثم إنَّ الشاعر يعود فتلومُه نفسُه مرةً أخرى –فهو في حال من التجاذب بين ملامة نفسه إيَّاه، واعتذاره هو عنها– كيف يترك جعفرًا صريعًا يعاني الموت، ولكنه يعود فيقول: تلك ساعةٌ لا ينفع فيها الإقدام، وهي حجةٌ مشهورة متداولة: أنه حين لا ينفع الإقدام، فالإحجامُ هو الرأي الصائب:

وَجَاشَتْ إِلَيّ النّفْسُ مِنْ نَحْوِ جَعْفَرٍ بِمُؤْتَةَ إِذْ لَا يَنْفَعُ النّابِلَ النَّبْلُ

بل قد ساعدهم على هذا التحيُّزُ المهاجرون –وهم من هم فضلًا وتقدُّمًا وإسلامًا– فحاجزوا بينهم وبين العدوِّ حتى انسحبوا:

وَضَمّ إِلَيْنَا حَجْزَتَيْهِمْ كِلَيْهِمَا مُهَاجِرَةٌ لَا مُشْرِكُونَ وَلَا عُزْلُ[٣]

وهذا احتجاجٌ بصلاح القوم؛ إذ كيف تلومونا، وقد تحيَّز بنا خالد، وهو أحسنُنا حربًا، وقد حاجز عنا المهاجرون، وهم أقوانا دينًا وإيمانًا؛ لم نُخطئ حينئذ.

(١) في نظرية الحِجاج: للدكتور عبد الله صولة ص٥٢–٥٣.

(٢) يرى النقاد أنه "كثيرًا ما يُعمد إلى الثناء على هذه السلطة قبل استخدامها" (في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٥٢–٥٣).

(٣) السيرة النبوية ٣٨٣/٢. قال ابن إسحاق في الموضع نفسه: "فبيَّن قيسٌ ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره، أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقَّق انحياز خالد بمن معه".

إنَّ الشاعر هنا يحاجج عن الجيش كلِّه بمن فيهم هؤلاء الصالحون، وقد ذهب أرسطو إلى أنَّ العوامل التي تدعو إلى بعث الثقة في الخطيب بحُجَّته ثلاثة، "إذ إن هناك ثلاثة أسباب، من غير البراهين، تدفعنا إلى الثقة، هذه هي: السدادُ، والفضيلةُ، والبِرّ"(١). وكلُّها متحقِّقٌ في هؤلاء القوم.

لقد رحِم رسولُ الله ﷺ هؤلاء القوم من الجيش(٢)، وعرف صدقَهم، فاعتذر لهم حين قلاهم الناسُ، ولان لهم حين أغلظوا لهم، ووصموهم بـ(الفُرَّار)، فقال: "ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّارُ إن شاء الله"(٣)، بأبي هو وأمي ﷺ؛ إذ يصنعُ صنيع القائد العظيم مع مثل هؤلاء الجُند الذين لاقَوْا من الأهوال ما قد لاقَوْا.

* * *

(١) انظر: مقالة: مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، للدكتور محمد الولي ص٢٨ (ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

(٢) يذهب ابن كثيرٍ بعد جمعه الأقوال إلى أن المنهزمين الفارّين فئةٌ من الجيش في اليوم الأول، وأنَّ خالدًا بات بهم وقد جعل ميمنة جيشه ميسرة، وميسرته ميمنة، ومقدمته ساقة وساقته مقدمة، فلما أصبحوا ظنَّ الأعداء أنهم قد جاءهم مددٌ فخافوا، ونصر الله خالدًا والمسلمين، ولذا قال الرسول ﷺ: "ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله ففتح الله على يديه"؛ فالمنهزمون عنده ليسوا جميع الجيش (انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ٢٨٦/٤، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤٠٨هـ).

(٣) انظر: السيرة النبوية ٣٨٣/٢.

خاتمة:

أراد هذا البحث معالجة مجموعة من النصوص بلغت ستًّا لشعراءٍ من العهد النبوي بين مسلمين وغير مسلمين ذلك الوقت، دلالةً على ما في شعرهم من خاصّة الإقناع الحجاجية، وهؤلاء الشعراء هم: الحارث بن هشام، وهُبيرةُ بن وهب، وتميم بن أسد، وحِماس بن قيس، ومالك بن عوف، وقيس بن المسحَّر.

ومعظم نصوصهم ليست بالطويلة لأسبابٍ: أهمها اقتصار الرواة على موطن الشاهد المبتغى من النصّ، أو لمجيئه على الرجز، وهذا موائمٌ لمن لم يحترف حرفةَ الشعر، أو لمجيئه قصيرًا في نفسه على هيئة مقطَّعة.

لقد استغلّ الشعراء الطاقات العقليّة واللغويّة للحجاج عن مواقفهم التي اتخذوها، ولم يقتصروا على الحجج العقليّة وحدها حتى لا يقتلوا روح الشعر، ولكيلا تنقلب أشعارُهم جزءًا من المحاماة الجافّة، بل اتخذوا بالإضافة إلى الحجج العقليّة سُبلًا حجاجيّةً عاطفيّةً أو لغوية. فمن تلك الحجج التي رصدها البحث: السلطة، والاشتراك، والتأطير، والحُجج القائمة على بنية الواقع وفقًا للروابط، وغيرها. واتخذوا سُبلًا حجاجيّةً أخرى عاطفيّةً أو نفسيّة كالعقلنة أو (التبرير)، والإسقاط النفسي، والتكوين العقلي، وحاجُّوا عن أنفسهم بالوسائل اللغوية الخالصة، مما بيّنه البحثُ في مواضعه.

نستطيع بهذا البحث التطبيقيّ إثبات قدرة الشاعر العربي القديم –طبقًا لنظريّات المذاهب الحديثة– على استغلال الممكنات الفنيّة المتباينة، مما قد يُظنُّ بعيدًا عن حدود دائرة شعرنا العربيّ القديم، ذلك الشعر الذي ما يزالُ مَعينًا لا ينضبُ للفنِّ والحياة.

* * *

المصادر والمراجع:

١. البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤٠٨هـ).
٢. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد (دار التراث، بيروت، ط٢/١٣٨٧هـ).
٣. تاريخ نظريات الحجاج، تأليف فيليب بروتون وجيل جوتييه (ترجمة الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط١/١٤٣٢هـ).
٤. التحليل النفسي والإتجاهات الفرويدية المقاربة العيادية، لفيصل عباس (دار الفكر العربي، بيروت، ط١/١٩٩٦م).
٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد (تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، ط١/١٤٢٢هـ)،
٦. الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون (ترجمة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١/٢٠١٣م).
٧. الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي (عالم الكتاب الحديث، إربد ٢٠١١م).
٨. الخطابة، بالترجمة العربية القديمة، لأرسطوطاليس، حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م).
٩. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، للسهيلي، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤١٢هـ).

١٠. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، للعصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٩هـ).
١١. السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميري (تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٥م).
١٢. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ).
١٣. العقد الفريد، لابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).
١٤. عيون الأثر في المغازي والسِّيَر، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).
١٥. الكامل، للمبرد الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣/١٤١٧هـ).
١٦. مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، لإبراهيم بن إبراهيم قريبي (منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط١/١٤١٢هـ).
١٧. المغازي، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد (تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣/١٤٠٩هـ).
١٨. المغالطات المنطقية: فصول في المنطق غير الصوري، لعادل مصطفى (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١/٢٠٠٧م).
١٩. مقالة منزلة العواطف في نظريات الحجاج، للدكتور حاتم عبيد (ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

٢٠. مقالة: مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، للدكتور محمد الولي (ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).
٢١. المنطق، لمحمد رضا المظفر (دار التعارف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٦م).
٢٢. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، لعبد المنعم الحفني (مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٧٨م).
23. The Ego and The Mechanisms of Defence, Anna Freud, Karnak books, Exeter, 1993. P. 70.

References :

1. albidayat walnihayatu, liaibn kathir, 'abi alfida' 'iismaeil bin kathir aldimashqii (tahqiq eali shiri, dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut, ta1/1408h).
2. tarikh alrusul walmuluka, li'abi jaefar muhamad bin jarir bin yazid (dar altarathi, bayrut, ta2/1387h).
3. tarikh nazariaat alhajaji, talif filib burutun wajil jutyih (tarjamat alduktur muhamad salih nahi alghamidi, markaz alnashr aleilami, jamieat almalik eabd aleaziza, jidat, ta1/1432h).
4. altahlil alnafsayu wal'iitijahat alfuruidiat almuqaribat aleiadiatu, lifaysal eabaas (dar alfakr alearabi, bayrut, ta1/1996m).
5. jamie albayan ean tawil ay alquran, liltabari, li'abi jaefar muhamad bin jarir bin yazid (tahqiq alduktur eabd allah bin eabd almuhsin alturki, dar hajr liltibaeat walnashr waltawzie wal'iielani, aljizati, ta1/1422h),
6. alhujaaj fi altawasuli, talif filib brutun (tarjamat muhamad mishbal waeabd alwahid altahami alealami, almarkaz alqawmiu liltarjamati, alqahirat, ta1/2013m).
7. alhujaaj fi alshier alearabii: buniatih wa'asalibihu, lildukturat samiat aldiridi (ealim alkitaab alhadithi, 'iirbid 2011ma).
8. alkhatabatu, bialtarjamat alearabiat alqadimati, li'aristutalis, haqaqah wellaq ealayh eabd alrahman badway, dar alqalama, bayrut 1979ma).
9. alrawd al'anf fi sharh alsiyrat alnabawiati, lilsuhili, 'abi alqasim eabd alrahman bin eabd allah bin 'ahmad (tahqiq eabd alrahman alwakili, dar 'iihya' alturath alearabi, bayrut, ta1/1412h).

10. samit alnujum aleawali fi 'anba' al'awayil waltawali, lileisami, eabd almalik bin husayn bin eabd almalik almakiy (tahqiq eadil 'ahmad eabd almawjud waeali muhamad mueawad, dar alkutub aleilmiati, bayrut, ta1/1419h).
11. alsiyrat alnabawiatu, liaibn hisham, 'abi muhamad eabd almalik bin hisham bin 'ayuwb alhimyry (tahqiq mustafaa alsaqaa wa'iibrahim al'abyarii waeabd alhafiz shalabi, maktabat mustafaa albabi alhalabi, alqahirati, ta2/1955mu).
12. alsinaeatayni, li'abi hilal aleaskarii, alhasan bin eabd allah bin sahl (tahqiq eali muhamad albijawi wamuhamad 'abu alfadl 'iibrahim, almaktabat aleasriatu, bayrut, 1419h).
13. aleaqd alfridi, liabn eabd rabih, 'abi eumar 'ahmad bin muhamad bin eabd rabih al'andalusii (dar alkutub aleilmiati, bayrut, ta1/1404hi).
14. eiuwn al'athar fi almaghazi walssiar, liabn sayid alnaasi, muhamad bin muhamad bin muhamad bin 'ahmad (taeliqi: 'iibrahim muhamad ramadan, dar alqalama, bayrut, ta1/1414h).
15. alkamil, lilmabrad alkamil fi allughat wal'adbi, lilmubardi, 'abi aleabaas muhamad bin yazid (tahqiq muhamad 'abu alfadl 'iibrahim, dar alfikr alearabii, alqahirati, ta3/1417h).
16. mrawiaat ghazwat hunayn wahisar altaayifi, li'iibrahim bin 'iibrahim qaribiun (manshurat aljamieat al'iislamiati, almadinat alnabawiati, ta1/1412h).
17. almaghazi, lilwaqidi, muhamad bin eumar bin waqid (tahqiq marsidin juns, dar al'aelami, bayrut, ta3/1409h).
18. almughalatat almantiqiati: fusul fi almantiq ghayr alsuwri, lieadil mustafaa (almajlis al'aelaa lilthaqafati, alqahirati, ta1/2007mi).

19. maqalat manzilat aleawatif fi nazariaat alhajaji, lilduktur hatim eubayd (dman eadad ealam alfikr almkhssas lilhajaji, mujaladi40, 'uktubar wadisambir 2011ma, almajlis alwatanii lilthaqafat walfunun waladab, alkuayti).
20. maqalatu: madkhal 'iilaa alhajaji: 'aflatun wa'aristu washaym birlman, lilduktur muhamad alwli (dman eadad majalat ealam alfikr almkhssas llhijaj, mujaladi40, 'uktubar wadisambir 2011ma, almajlis alwatanii lilthaqafat walfunun waladab, alkuayt).
21. almantiq, limuhamad rida almuzafar (dar altaearuf lilmatbueati, bayrut 2006m).
22. musueat eilm alnafs waltahlil alnafsi, lieabd almuneim alhafnii (maktabat madbuli, alqahirat 1978mi).
23. The Ego and The Mechanisms of Defence, Anna Freud, Karnak books, Exeter, 1993. P. 70.